العرب
الإثنين 2021/05/17
السنة 43 العدد 12061

المكان والضوء بطلا المسلسل التونسي «أولاد الغول»

انتهى المسلسل التونسي "أولاد الغول" الذي عرض في الموسم الرمضاني الأخير على قناة "التاسعة" الخاصة بإيقاع بطيء كما انطلق. ثلاثون حلقة متصلة قدّم فيها المخرج مراد بن الشيخ شخصياته المركّبة وعوالمها المعقّدة بنسق رتيب، جعل بعض المشاهدين يعزفون عن متابعته، رغم عمق القصة التي رسمت معالمها بإتقان السيناريست التونسية رفيقة بوجدي مؤلفة المسلسل الحدث في العام 2008 "صيد الريم".

صابر بن عامر
صحافي تونسي

تونس - نهاية مفتوحة لقصة مُربكة، عن الحب والهجر، الحياة والموت، وخاصة الصراع حول الميراث والنفوذ، نهاية تُعيد لعائلة آل الغول، بعضا ممّا ارتكبه رب العائلة "إسماعيل الغول" في شبابه قبل أن يُقتل على يد أحد أبنائه.

عاد "هارون" (جسّد دوره حلمي الدريدي) إلى البيت الكبير حاملا بين ذراعية وليدة أخاه غير الشقيق المسجون ظلما "يوسف" (فارس الأندلسي) لتكون عضوا جديدا في العائلة التي تبدو ظاهريا أمام الناس مترابطة ومنسجمة، في حين أنها مفكّكة حدّ المرض كحال الأخت الوحيدة "بية" (سارة الحناشي).

المسلسل يروي قصة عائلة تتكوّن من ثلاثة أبناء شرعيين وابن غير شرعي يتصارعون في ما بينهم من أجل الميراث

هكذا ارتأى الثنائي مراد بن الشيخ في الإخراج ورفيقة بوجدي في السيناريو إقفال الحلقة الـ30 من مسلسل "أولاد الغول" الذي عرضته قناة "التاسعة" الخاصة على امتداد شهر رمضان المنقضي، بنهاية مفتوحة تُعلن بشكل صريح إمكانية إنجاز جزء ثان من عمل إشكالي لم تتّضح خباياه بعد.

كل شيء ظل معلّقا، مصير يوسف المحكوم عليه بالسجن المؤبّد في جريمة قتل لم يرتكبها، وكذلك الأمر بالنسبة لهارون وأمه "الكاملة" (وحيدة الدريدي) التي لا تتوانى، رغم قسوتها الصارخة، عن فعل أي شيء من أجل أن يستفرد أبناؤها الثلاثة: قابيل وبية وهارون بثروة أبيهم الطائلة، على أن يحرم يوسف "ابن الزنا" كما تقول، من كل شيء، بل وليقضي بقية حياته في السجن بمكيدة دُبّرت بينها وبين بكرها هارون، وبتواطؤ غير معلن، ولو بالصمت، من شقيقيه بية وقابيل.

ومسلسل "أولاد الغول" يروي قصة عائلة الغول، وهي عائلة من الأثرياء، تتكوّن من ثلاثة أبناء شرعيين وابن غير شرعي من علاقة غرامية للأب، حيث تتشابك الأحداث وتتداخل في علاقات معقدة للأبناء بعضهم ببعض، وعلاقتهم بأبيهم، ودور الأم المحوري في إدارة الأحداث وتطوّرها.

قصة دارت جل أحداثها، تقريبا في بيت الغول، المكان المغلق والمليء بالرتابة والرطوبة، إن صحّ التوصيف، رطوبة العلاقات الإنسانية التي تجمع بين الأشقاء الأعداء، ليكون المكان/ البيت بطل العمل دون منازع عبر إخراج سينمائي أقرب منه إلى الإخراج التلفزيوني، بزوايا تصوير يحضر فيها البيت سيّد المشاهد، فتغيب الانفعالات الحادة للممثلين في أكثر من لقطة، لتسود الألوان الحالكة بين أسود داكن وأحمر قان، في تمهيد لجريمة القتل التي ذهب ضحيتها الأب إسماعيل.

سواد مُربك ومُقرف أيضا أجاد تشكيله مدير التصوير التونسي محمد المغراوي، بما يعكس سوداوية الأنفس المُتصارعة على الميراث، والمتمثلة خاصة في هارون وأمه الكاملة اللذين يُحيكان الدسائس في وضح النهار، ليكون نهارهما رديفا لليلهما مكرا وكيدا.

عتمة طاغية تسرد سوداوية الأحداث وتلاحقها، وإن بنسق رتيب، بطيء وفاتر يصل في أحيان كثيرة حد الضجر من هذا التلكّؤ الإيقاعي المدروس من مدير تصوير أنجز كبرى الأعمال الدرامية العربية على غرار "عمر" و"الهيبة- العودة" و"دولار"، فأتقن دائما وأبدا لعبة السطوع والخفوت في الضوء وضدّه.

وهذه الثنائية بين الخمود والبريق تبناها مخرج العمل مراد بن الشيخ بشكل سريالي في مشهد دفن هارون، لزوجة شقيقه "مريم" (ياسمين بوعبيد)، وهي التي مثّلت في المسلسل نقطة ضعفه الوحيدة، فهو العاشق المتيّم بحبها، في حين أنها اختارت شقيقه حبيبا وزوجا، الأمر الذي جعله يختطفها وهي حامل، موصدا الأبواب دون هروبها من سطوته عليها، إلى أن تلد وحيدتها، لتموت أثناء الوضع.

حينها يتولّى هارون دفنها في حديقة أحد بيوته الكثيرة، وهو باك مُلتاع في مشهد خارجي تسطع فيه شمس النهار بكل أشعتها، في قلب لأدوار العتمة والنور، لتغدو الحياة ظلمة، والموت ضياء. وكأنّ مريم بموتها تخلّصت من أدران حب مقيت متملّك ومتسلّط يُميت ولا يُحيي من يُحبّهم، كحاله مع أخيه غير الشقيق يوسف وأخاه الأصغر قابيل وأخته الوسطى بية وكل من يقف حجر عثرة أمام جشعه اللامتناهي للمال والحب والقوة.

لعبة التوهّج والخفوت تعوّد تقديمها بن الشيخ في مسلسل سابق له عن سيناريو أنثوي أيضا لخليدة الشيباني حمل عنوان "يوميات امرأة" (إنتاج 2013) استعرض فيه حكاية مجموعة من النساء، وهنّ المرأة الموظفة في البنك، المرأة الأستاذة، المرأة الخادمة، المرأة الابنة والمرأة الأم، حكايات يومية بسيطة، لكنها عميقة في علاقاتهنّ المتشابكة بالرجل، الزوج، الأب، الأخ والابن.

حكايات أتت في "يوميات امرأة" بضوء مُشع سواء في مشاهده الخارجية بين تونس العاصمة وجزيرة جربة السياحية أو تلك الداخلية بمنازل أبطال العمل، ما يعكس انتصار المخرج لقضايا المرأة وتمكينها في زمن التحوّلات السياسية الكبرى لتونس ما بعد ثورة 2011، وما حاق بمكاسبها من محاولات جادة لتهميشها.

أما في "أولاد الغول" فقد أتى الضوء، كما أسلفنا، فاترا مُعتّما ما يعكس حقبة التسعينات التي اتسمت بالفساد المدقع اجتماعيا، وخاصة سياسيا، فلخّصها الضوء المُبهم بما يطرحه من تساؤلات حول حدود الحريات وإمكانها في مجتمع يسوده نظام الرجل الواحد وأصهار السيدة الأولى، كما جسّدت الحركة البطيئة للكاميرا تراتبية الإيقاع في يوميات التونسي البسيط المرتهن للقمة العيش، لا أكثر.

ورغم هذه البطولة اللافتة للمكان والضوء في "أولاد الغول"، فإن ذلك لم يمنع بروز العديد من الوجوه التمثيلية التي أتقنت تجسيد أدوارها بين الهدوء وصخب الانفعال إن باللفظ أو إيماءات الوجه، على غرار فتحي الهداوي الذي تميّز في تجسيد دور الأب إسماعيل الحازم مع ابنه هارون، واللّين، أحيانا، مع ابنه يوسف، على عكس زوجته الكاملة الصارمة حد التسلّط مع كل أهل البيت عدا ابنها البكر هارون الحاكم بأمره وأمرها.

وقد تميّز أداء حلمي الدريدي في تجسيده لدور هارون بانفعالات مدروسة بقياس سواء على مستوى الحركة والصوت، وخاصة الملامح الثابتة أثناء التشنّج والسكينة على السواء، ما يعكس شخصيته المركّبة التي تخفي من الدسائس أقصاها ومن العنف أقساه.

كما تميّزت مرام بن عزيزة في تجسيد دور "جميلة" أو "جيجي" الشابة الانتهازية التي لا تتوانى عن اقتناص أي فرصة تمكنّها من الوصول إلى المال والثروة ولو ببيع جسدها لمن يدفع أكثر، بل وإن كلفها ذلك حرمان جسدها النظر من علاقة حميمية كاملة بقبولها الزواج من قابيل العاجز جنسيا، وذلك ضمن صفقة حاكت خيوطها ببراعة مع الأخ الأكبر هارون أساسها "افعل ما تشاء.. وأفعل ما أريد".

النهاية المفتوحة للعمل تمهّد لجزء ثان قد يكشف أسرارا بقيت مُبهمة في بيت آل الغول المليء بالضغائن التي لا تنتهي

وتبقى شخصية "التوهامي" الطالب الجامعي المتسلّق والوصولي بلكنته الريفية "السمجة"، كما توصّفها حماته الكاملة، وتنقّله بين حُبيْن، واحد للقلب وآخر للعقل، وإن جمع بينهما تعطّشه المرضي للجنس، تحفة المسلسل التمثيلية التي تميّز في تجسيدها بلال البريكي قاطعا من خلالها مع شخصية "ماهر" الفتى الحالم والوفي لحبيبته كما قدّمها في مسلسل "نوبة".

والطريف هنا أن ظهور البريكي في كلا العملين، أي "نوبة" و"أولاد الغول" على اختلاف الدورين، شكلا ومضمونا، اقترن بحقبة التسعينات، فهل كُتب عليه أن يظل رهين تلك الفترة الزمنية؟ أم هي مجرّد مُصادفة، ليس إلا؟

عتمة مُوظّفة تعكس سوداوية الأنفس المُتصارعة

«المداح» دراما مصرية تغوص في ثقافة البيئات الشعبية

حمادة هلال لـ«العرب»: العمل يحمل رسالة مفادها «كذب المنجمون ولو صدقوا»

أداء صادق عن شخصية متقلبة

يحافظ الفنان المصري حمادة هلال على العمل في منطقة درامية محددة في غالبية أعماله، حيث يسعى دوما للاقتراب من البيئة الشعبية التي قضى فيها جزءا من حياته دون تشويهها بالبلطجة والعنف، وتقديم شخصيات تحمل تناقضات داخلية، وتحمل كمًّا من الخير والشر المبرّرين معا، فيخطف التعاطف من جمهوره الذي يتابع أعماله.

سماح السيد
كاتبة مصرية

القاهرة - جذب الفنان المصري حمادة هلال الأنظار إليه بمسلسل "المداح" الذي استطاع من خلاله الترشح لجائزة نقاد الدراما العربية التي تنظمها مؤسسة "فنون" للثقافة والإعلام ضمن المسلسلات المصرية المشاركة في السباق الرمضاني الأخير، عن شخصية المنشد الديني "صابر" المليئة بالتداخل النفسي والسحر والشعوذة والبركة.

وجاءت القصة مكتوبة بشكل يتواءم مع المعتقدات الشعبية الدارجة في مصر عن منشد ديني ذي صوت عذب نشأ يتيما، ولديه قدرات خاصة يرى عبرها بعض الغيبيات ليُعالج مرضاه بالقرآن ويخرج عنهم الجان الذي يتلبّسهم، وتعتبر تلك الأفكار من المرتكزات الأساسية في التعامل مع فكرة المرض غير العضوي في المناطق ذات الثقافات المحدودة التي تردّ كل أسباب الإيذاء إلى قوى غيبية غير منظورة.

وقال حمادة هلال في حواره مع "العرب" إن شخصية صابر موجودة في الواقع، وتناقضاتها شجّعته على أداء الدور، فهي تجمع بين العمل كمدرّس ومدّاح وشاف وفاتح مقابر أثرية، وكلها صفات جذابة. ومواصفاته الشكلية والنفسية جاءت نتيجة خبرات سابقة صادفها بالفعل في حياته.

بين الفشل والنجاح

تبارى الكثيرون خلال عرض العمل لإيجاد أوجه تشابه بين "المدّاح" والتراث السينمائي السابق الذي تناول فكرة الدجل مع فيلم "البيضة والحجر" للفنان الراحل أحمد زكي وفيلم "إسماعيل ياسين في مستشفى المجانين" عن خداع البسطاء بأعمال السحر، لكن هلال أكّد أن المعالجة في "المداح" جاءت مختلفة تماما.

وأضاف الفنان المصري أن "صابر يملك بركة وهبة نورانية جعلته معالجا روحانيا قبل أن تتبدّل الكثير من سلوكياته باستغلاله لهذه الموهبة، ويحمل رسالة مفادها "كذب المنجمون ولو صدقوا"، ويتجسّد ذلك في النهاية الأليمة والمأساوية لكل من يُمارس الخداع.

ولعب المسلسل كثيرا على الجانب الروحاني الذي يوجد لدى قطاع كبير من البشر بصورة أو بأخرى، فقد يُصاب البعض بانقباض في الصدر يجعله يعدّل قرارا مصيريا خاطئا، أو تؤكّد الأيام صدق توقّعه أو أن تباغته رؤى تتحكّم في قراراته، وكلها نماذج قدّمها العمل في رسمه لشخصياته وتفاعلاتها في الحياة.

وأوضح هلال لـ"العرب" أن المسلسل لم يحمل إسقاطا لجماعة دينية بعينها ولم يقترب من السياسة من قريب أو بعيد، على الرغم من أن فكرة "المدّاح" تغرّد خارج سرب باقي الأعمال الرمضانية وتضمّنت انتقالا تدريجيا سلسا من الخير إلى الشر، ولأسباب خاصة لا تتضمّن أي قدر من العمومية .

وداعبت فكرة المسلسل هلال منذ ستة أعوام، لكنها لم تجد حماسا من المنتجين لأنها أشبه بالمغامرة غير مأمونة العواقب أو سلاح ذو حدين، فإما أن تنجح نجاحا منقطع النظير أو تشهد قدرا من المبالغة فتفشل فشلا ذريعا، وتم انتقاء اسم المدّاح بعناية على اعتبار أن هناك من يمدح الخير وهناك من يمدح الشر، وكلاهما يختار طريقا يتضمن في النهاية ثوابا أو عقابا.

ورغم أن العمل يقدم التصوّرات الشعبية المعتادة عن عوالم المردة والسحرة، لكن جهاز الرقابة على المصنفات الفنية تدخل بحذف مشهد إخراج الجان من العروس في الحلقة الأولى من العمل، والذي قال هلال إنه لا يتضمّن مبالغات، فهي أمور تتكرّر عند إخراج الجان، والمس مذكور في القرآن الكريم، لكنه يحترم رأي الرقابة في النهاية.

ويظهر اقتناع هلال الكبير بالفكرة كثيرا على أدائه الذي نبع من معايشته للأجواء الشعبية في موطن نشأته في حي الزاوية الحمراء في القاهرة، وتنقله في طفولته في مهن بسيطة، حتى أنه يرفض وصم الشخصية التي أدّاها بالدجل، ويؤكّد أنها نورانية قريبة من الله. لكن القلوب بين إصبعين من إصبع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فصابر الذي يستغل قدراته للخير يقابل الشيطان ويغويه فيحدث تغيرا جذريا في شخصيته ويستغل قدراته للشر.

ولم يتمسّك الفنان المصري كثيرا بفكرة البطولة والغناء المطلق في العمل والتي قد تثير انتقادات البعض بكتابة القصة على مقاسه، فلم يقدّم كل الأغاني والمديح واستعان بآخرين كان لهم حظ من الإنشاد والمديح ليخلق قدرا من الجماعية في الأصوات ليشبه الأمر حفلة موسيقية دينية كلما زاد مطربوها كانت أفضل.

مدح صوفي

مثلت أغاني المديح النبوي أهم عناصر التميز في العمل، فكانت الأكثر جذبا للأنظار في ظل الفراغ الذي تعانيه الدراما الدينية وتشوّق قطاعات من الجمهور لبعض الهبات الصفائية التي تماشت كثيرا مع هلال الذي قدّم أغاني المديح في أكثر من قصيدة مثل "محمد نبينا"، كما شاركه بعض الفنانين ولاعبي الكرة والإعلاميين تصوير كليب قصيدة "مشتاقين" وحقّق مشاهدة مرتفعة على يوتيوب.

وأوضح هلال لـ"العرب" أن الواقعية أهم سمات المسلسل، حتى مشاهد الاستعانة بالشيوخ لفتح المقابر الفرعونية لم تكن مفتعلة، وهي شائعة وتحدث عند وجود كشف أثري، حيث يقرأ الشيخ بعض آيات القرآن الكريم أثناء فتح المقبرة المغلقة منذ آلاف السنين، لتحييد من يسمّون بـ"خدام المكان من الجان حتى لا يتعرّض من يحاولون فتحها للإيذاء البدني والنفسي".

ويتّسم هلال بالهدوء التمثيلي في أدواره ومن دون مبالغة في الأداء، فتماشى ذلك مع طبيعة الشخصية التي قدّمها عن اليتيم المجهول ونظرة المجتمع له، وهي إشكالية تخلق في نفوس المئات من البشر ندوبا لا تندمل بسهولة.

الفنان المصري تنقّل في «المداح» بسلاسة بين الخير بصفائه ونورانيته والشر وما يتبعه من إحساس بالذنب وتأنيب الضمير

واستطاع الفنان المصري الذي ظل حتى وقت قريب يصنّف كمغن أكثر من كنايته بالممثل أن يجيد التعبير بملامح الوجه عن تقلبات شخصيته بين البشاشة والطيبة والنورانية في الحلقات الأولى، ثم العبوس والإحساس بالخطيئة وتأنيب الضمير بعد ارتكاب جريمة القتل، ليثبت أن قدراته تتنامى في طريق التعبير عن الأدوار المركّبة.

وصنع مسلسل "المداح" مساحة واضحة بين المنشد الذي يضل طريقه والمشعوذ حتى يسهل التقاطها بسهولة عبر حوار متّزن من قبل المؤلفين أمين جمال ووليد أبوالمجد وشريف يسري، ورؤية إخراجية متقنة لأحمد سمير فرج تجسّد المنطقة الشعبية التي يقطن فيها البطل بواقعية بعيدة عن الافتعال.

ويصمّم هلال على تقديم صورة مغايرة للحارة الشعبية، ففي مسلسل "طاقة القدر" الذي قدّمه قبل عامين تناول قصة تمزج بين الرومانسية والتشويق عن صعود شاب عبر الاجتهاد والكسب الحلال دون الانجرار إلى البلطجة والخروج على القانون، وهي فكرة مغايرة تماما للسائد عن المعالجات الأخيرة للحارة المصرية.

وأكّد لـ"العرب" أن الأداء التمثيلي للكثير من الفنانين كان أحد أسباب نجاح المسلسل، فالفنان أحمد بدير تنقل بين التراجيديا والكوميديا ببراعة، وحنان سليمان التي لعبت دور الأم الحنون أدّت دورها بإتقان، وخالد سرحان أتقن دور الشقيق الفاسد ومدمن المخدرات، والفنانة نسرين طافش لعبت دور الزوجة والحبيبة بإجادة عالية.